مواقف المتاخين
في الله

مواقــف عربيــة

مواقف المتآخين في الله

قال تعالى: {إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾} [الحجرات: ١٠].

والصِّنْو أشبه بالصنو منه بالشجرة التي يخرجان من أصلها، أو الثمرة التي تخرج منهما، والأخوان صِنْوَان متساويان في الأصل والمنشأ، وفي النبات والنمو، ويتعاهدان بتربية واحدة في الغالب، فأجدر بالأخ أن يأنس بأخيه، ما لا يأنس بأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، لما ذكرنا من كمال المناسبة والمشاكلة التي هي علة الأنس والحب، ولأن للوالدين من الرفعة وحقوق الاحترام والاحتشام ما يقف بالأنس بهما دون كماله، كما أن القيام على البنين بالتأديب والسيطرة منافٍ للاسترسال في الأنس بهم والانبساط إليهم في جميع الشؤون والأطوار، فكم من كلام وعمل مما يرتاح إليه

يعرض عنهما الإنسان إذا كان على مرأى ومسمع من أصوله وفروعه، ويقبل إليه مع إخوانه وصنوانه، أما الصاحبة (الزوجة) فلا يظهر هذا الوجه بالإضافة إليها؛ لأن الأنس بها لا يكاد يساويه أنس، ولكن الأخ يفوقها في مناسبة الاتفاق في المنبت والتربية، فإن لاختلاف التربية أقوى تأثير في الألفة والمحبة والنفور والوحشة، وهو العلة في التنازع بين الأزواج، واختلال نظام العائلات المؤدي إلى سقوط الأمة في عواثير الشقاء ومهاوي الهلكات. ومزية أخرى يفضل بها الأخُ الزوجَ، وهي:

أن الاستعاضة عنه إذا فقد ليست مما يناله الكسب، ويتوصل إليه بسعي أخيه الذي فقده.

يحكى أن امرأة كان لها ابن وأخ وزوج وقعوا في غضب الحجاج، فأراد الإيقاع بهم، وعهد إلى المرأة أن تختار أحدهم كفيلاً لها ليقتل من عداه، فاختارت الأخ قائلة: إن الابن والزوج يمكن الاعتياض عنهما، وأما الأخ فلا عوض عنه،فأعجب الحجاج بقولها؛ لأنها غلَّبت العقل والحكمة على الحنان والشهوة، وعفا عن الجميع وقال: لو اختارت غير الأخ لقتلت الكل ولم أدع لها أحداً.

وبالجملة إن لكل قريب ونسيب مكانة تفضله من وجه على الآخر، فللوالدين : التعظيم والاحترام، وللولد: الرأفة والحنان وللأخ والزوج (يطلق على الذكر والأنثى كما لا يخفى) ارتياح المساواة، وأنس الكفؤ والنديد، ولذلك يسمى الأخ شقيقًا، كأن الأخوين شيء واحد شُق نصفين، ويسمى صنوًا، والصنوان هما فسيلتا النخل تخرجان من أصل واحد، ويسمى كل من الرجل والمرأة المقترنين زوجًا للآخر بملاحظة أنهما شيء واحد في المعنى، ظهر بصورتين ثَنَّت إحداهما الأخرى، وقد علمت أن مكانة الأخ لا يحلها سواه، وأن الميل إليه ميل إلى كفيح ونديد، ترى له عليك مثل ما لك عليه، بخلاف سائر الأقربين، ولهذا سمي الصديق أخًا، وجاء القرآن يعلم الناس ويرشدهم لأن يكونوا كلهم أصدقاء وإخوة،

ويجعلوا أباهم في هذه الأخوة الإيمان بالله تعالى بما نزل من الحق فقال:{ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } [الحجرات: ١٠]، ورتب على ذلك قوله:{فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: ١٠]، وفي الحصر بـ (إنما) والعطف بالفاء ووضع الظاهر في (أخويكم) موضع الضمير - ما لا يخفى من تأكيد هذه الأخوة وتقريرها، ثم قال:{ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ } [الحجرات: ١٠]، بأن تقوموا بحقوق هذه الأخوة، وما ترتب عليها من الإصلاح بالمساواة إذ لا وجه لمحاباة أحد والكل إخوة:{لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: ١٠]، في الدنيا والآخرة، وما أجدر من يقوم على هذا الصراط السوي بأن يرحم.

وقال الإمام الغزالي: اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين، وكما يقتضي النكاح حقوقًا يجب الوفاء بها قيامًا بحق النكاح، فهكذا عقد الأخوة؛ فلأخيك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب بالعفو والدعاء والإخلاص والوفاء وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف، وذلك يجمعه ثمانية حقوق.

(الحق الأول): قال رسول الله ﷺ :"**مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى** -[1] وإنما شبههما باليدين لا باليد والرجل؛ لأنهما

(1) رواه السلمي في آداب الصحبة، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس، وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي كذاب، وهو من قول سلمان الفارسي في الأول من الحزبيات.

يتعاونان على غرض واحد، فهكذا الأخوان إنما تتم أخوتهما إذا توافقا في مقصد واحد، فهما من وجه كالشخص الواحد، وهذا يقتضي المساهمة في السراء والضراء، والمشاركة في المال والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار.

والمواساة بالمال مع الإخوة على ثلاث مراتب: (أدناها) أن تُنزله منزلة

عبدك أو خادمك، فتقوم بحاجته من فضل مالك، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء، ولم تُحوِجه إلى السؤال، فهو غاية التقصير في حق الأخوة.

(الثانية): أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك، ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال، قال الحسن: (كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه).

(الثالثة) وهي العليا: أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك، وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين.

ومن تمام هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضًا، كما رُوي أنه سُعي بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء، فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسين النوري. فبادر إلى السياف ليكون هو أول مقتول، فقيل له في ذلك فقال: أحببت أن أوثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة، فكان ذلك سبب نجاة جميعهم - من حكاية طويلة - فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك، فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد في الباطن، وإنما الجاري بينكما مخالطة رسمية، لا وقع لها في العقل والدين، فقد قال ميمون بن مهران: (مَن رضي من الإخوان بترك الأفضال فليؤاخِ أهل القبور.

وأما الدرجة الدنيا فليست مَرضية عند ذوي الدين؛ روي أن عتبة الغلام جاء إلى منزل رجل كان قد آخاه، فقال: أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف، فقال: خذ ألفين، فأعرض عنه، وقال: آثرتَ الدنيا على الله، أما استحيت أن تدَّعي الأخوة في الله وتقول هذا.

ومَن كان في هذه الدرجة من الأخوة فينبغي ألاَّ تعامله في الدنيا، قال

أبو حازم: إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دنياك. وإنما أراد به من كان في هذه الرتبة.

وأما الرتبة العليا: فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله: {وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [الشورى: ٣٨]، أي كانوا خلطاء في الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض، وكان منهم من لا يصحب من قال: مالي أو نعلي؛ لأنه أضافه إلى نفسه. وجاء فتح الموصلي إلى منزل أخ له وكان غائبًا، فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته، وأخبرت الجارية مولاها فقال: (إن صدقتِ فأنت حرة لوجه الله) سرورًا بما فعل. وجاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال: إني أريد أن أواخيك في الله، فقال: أتدري ما حق الإخاء؟ قال:

عرفني، قال: ألاَّ تكون أحق بدينارك ودرهمك مني. قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد، قال: فاذهب عني. وقال علي بن الحسين رضي الله عنه لرجل: (هل يُدخِل أحدكم يده في كُم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه؟ قال: لا، قال: فلستم بإخوان.

ودخل قوم على الحسن رضي الله عنه فقالوا: يا أبا سعيد، أصليت؟ قال: نعم، قالوا: فإن أهل السوق لم يصلوا بعد، قال: ومن يأخذ دينه من أهل السوق، بلغني أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم. قاله كالمتعجب منه، وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم رحمه الله وهو يريد بيت المقدس فقال: إني أريد أن أرافقك، فقال له إبراهيم: على شرط أن كون أملك لشيئك منك، قال: لا، قال: أعجبني صدقك.

قال: فكان إبراهيم رحمه الله إذا رافقه رجل لم يخالفه، وكان لا يصحب إلا من يوافقه، وصحبه رجل شرَّاك (هو الذي يعمل الشُّرُك للنعال) فأهدى رجل إلى إبراهيم في بعض المنازل قصعة من ثريد ففتح جراب رفيقه وأخذ حزمة من شُرُك وجعلها في القصعة وردها إلى صاحب الهدية، فلما جاء رفيقه قال: أين الشُّرُك؟ قال: ذلك الثريد الذي أكلته إيش كان؟ قال: كنت تعطيه شراكين أو ثلاثة، قال: اسمح يُسمح لك. وأعطى مرة حمارًا كان لرفيقه بغير إذنه رجلاً رآه راجلاً، فلما جاء رفيقه سكت ولم يكره ذلك. قال ابن عمر رضي الله عنه : أهدي لرجل من

أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: أخي فلان أحوج مني إليه، فبعث به إليه، فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر، حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة. وروي أن مسروقًا ادَّان دينًا ثقيلاً وكان على أخيه خيثمة دين، قال: فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم، ولما آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والأهل، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فيهما، فآثره بما آثره به، وكأنه قَبِله، ثم آثره به وذلك مساواة والبداية إيثار والإيثار أفضل من المساواة. وقال أبو سليمان الداراني: (لو أن الدنيا كُلَّها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقللتها له). وقال أيضا: (إني لألقم اللقمة أخًا من إخواني فأجد طعمها في حلقي).ولما كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء قال علي رضي الله عنه: لَعشرون درهمًا أعطيها أخي في الله أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين. وقال أيضًا: (لأن أضع صاعًا من طعام وأجمع إخواني في الله أحبُّ إليَّ من إعتاق رقبة).واقتداء الكل في الإيثار برسول الله ﷺ ؛ فإنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتنى منها سواكين: أحدهما معوج، والآخر مستقيم، فدفع المستقيم إلى صاحبه فقال: يا رسول الله، كنت والله أحق بالمستقيم مني، فقال : (ما من صاحب يصحب صاحبًا ولو ساعة من النهار إلا سئل عن صحبته، هل أقام فيها حق الله أم أضاعه). فأشار بهذا إلى أن الإيثار هو القيام بحق الله في الصحبة.

وخرج رسول الله ﷺ إلى بئر يغتسل عندها، فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب وقام يستر رسول الله ﷺ حتى اغتسل، ثم جلس حذيفة ليغتسل، فتناول رسول الله ﷺ الثوب وقام يستر حذيفة عن الناس، فأبى وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا تفعل، وأبى عليه السلام إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل، وقال ﷺ :"**ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه**". وروي أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن وكان غائبًا، فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن، فجعل يأكل، فقال له مالك: كُفَّ يدك، حتى يجيء صاحب البيت،

فلم يلتفت محمد إلى قوله وأقبل على الأكل، وكان محمد أبسط منه وأحسن خلقًا، فدخل الحسن وقال: يا مُوَيْلِك، هكذا كنا لا يحتشم بعضنا من بعض، حتى ظهرت أنت وأصحابك، وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة، كيف وقد قال الله تعالى:{أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ} [النور: ٦١]، كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفوض إليه التصرف كما يريد، وكان أخوه يتحرج من الأكل بحكم التقوى، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية، وأذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء.

ومن حقوق الأخوة الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال، وتقديمها على الحاجات الخاصة. وهذه أيضًا لها درجات كما للمواساة بالمال، فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة. وقال بعضهم: إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضِها فكبِّرْ عليه واقرأ هذه الآية:{ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ} [الأنعام: ٣٦]، وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاءه بهدية فقال: ما هذا؟! قال: لما أسديتَه إليَّ. قال: خذ مالك - عافاك الله - إذا سألت أخاك حاجة فلم يُجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبرْ عليه أربع تكبيرات وعُدّه في الموتى! قال جعفر بن محمد: إنى لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني. هذا في الأعداء،فكيف في الأصدقاء؟!

وكان في السلف مَن يتفقَّد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم، ويتردد كل يوم إليهم ويموِّنهم من ماله، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه، بل كانوا يرون منه ما لم يَرَوْا من أبيهم في حياته. وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول: هل لكم زيت، هل لكم مِلح، هل لكم حاجة؟ وكان يقوم بها من حيث لا يعرفه أخوه، وبهذا تظهر الشفقة والأخوة، فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها. قال ميمون بن مهران: (مَن لم تنتفع بصداقته لم

تضرك عداوته) وقال ﷺ :"**ألا وإن لله أواني في أرضه وهي القلوب، فأحبّ الأواني إلى الله تعالى أصفاها وأصلبها وأرقها**-أصفاها من الذنوب، وأصلبها في الدين، وأرقها على الإخوان.

وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك وأهم من حاجتك، وأن تكون متفقدًا لأوقات الحاجة، غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت بها ولا ترى لنفسك حقًّا بسبب قيامك بها، تتقلد منه بقبول سعيك في حقه وقيامك بأمره، ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة، بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد.

كان الحسن يقول: إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا.

وقال عطاء: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث؛ فإن كانوا مرضى فعودوهم، أو مشاغيل فأعينوهم، أو كانوا نسوا فذكِّروهم. روي أن ابن عمر كان يلتفت يمينًا وشمالاً بين يدي رسول الله ﷺ ؛ فسأله عن ذلك فقال: أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه. فقال: (إذا أحببت أحدًا فسلْه عن اسمه واسم أبيه وعن منزله؛ فإن كان مريضًا عدته وإن كان مشغولاً أعنته) وفي رواية: (وعن اسم جده وعشيرته).

وقيل لابن عباس: مَن أحب الناس إليك؟ قال: جليسي. وقال: ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثًا من غير حاجة له إليَّ فعلمت ما مكافأته من الدنيا.

وقال سعيد بن العاص: لجليسي عليَّ ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا حدث أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له. وقد قال تعالى{ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ } [الفتح: ٢٩]، إشارة إلى تمام الشفقة والإكرام. ومن تمام الشفقة ألاَّ ينفرد بطعام لذيذ أو بحضور في مسرة دونه، بل يتنغَّص لفراقه ويستوحش بانفراده عن أخيه. اهـ من (الإحياء).

فهكذا تكون الأخوة، وهكذا تكون آداب الأمم في طور الحياة، وكأنِّي بالذين في قلوبهم مرض تنفر نفوسهم من هذه الآثار، ولو نقل مثلها عن الإفرنج لأُعجبوا بها وتنافسوا فيها.

ومن حقوق الأخوة حفظ اللسان بالسكوت مرة، وبالنطق أخرى، أما السكوت فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته، بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به، وأن لا يماريه ولا يناقشه، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله، وإذا رآه في طريق أو حاجة ولم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره وموارده لا يسأله عنه، فربما يثقل عليه ذكره، أو يحتاج إلى أن يكذب فيه وليسكت عن أسراره التي بثها إليه، ولا يبثها إلى غيره ألبتة، ولا إلى أخص أصدقائه، ولا يكشف شيئًا منها، ولو بعد القطيعة والوحشة؛ فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن، وأن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه، فإن الذي سَبَّك مَن بَلَّغَك، وقال أنس: كان ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكرهه، والتأذي يحصل أولاً من المُبَلِّغ ثم من القائل، نعم لا ينبغي أن يخفي ما يسمع من الثناء عليه، فإن السرور يحصل من المُبَلِّغ ثم من القائل، وإخفاء ذلك من الحسد.

وبالجملة: فليسكت عن كل كلام يكرهه - جملة وتفصيلاً - إلا إذا وجب عليه النطق بأمر بمعروف أو نهي عن منكر، ولم يجد رخصة في السكوت، فإذ ذاك لا يبالي بكراهته، فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق، وإن كان يظن أنه إساءة في الظاهر، وأما ذكر مساويه وعيوبه ومساوي أهله فهو من الغيبة المحرمة، ويزجرك عنه أمران (أحدهما) أن تطالع أحوال نفسك، فإن وجدت فيها شيئًا مذمومًا فهوِّن على نفسك ما تراه من أخيك، وقَدِّر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة، كما أنك عاجز عما أنت مُبتلى به، ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة، فأي الرجال المهذب، وكل ما لا تصادفه من نفسك في حق الله، فلا تنتظره من أخيك في حق نفسك، فليس حقك عليه بأكثر من حق الله عليك، و(الأمر الثاني) إنك تعلم أنك لو طلبت مُنَزَّهًا عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة، ولن تجد من تصاحبه أصلاً، فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوٍ، فإذا غلبت المحاسن على المساوي فهو الغاية والمنتهى، فالمؤمن الكريم أبدًا يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام، وأما المنافق اللئيم،

فإنه أبدًا يلاحظ المساوي والعيوب، قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات، وقال الفضيل: الفتوة العفو عن زلات الإخوان، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : استعيذوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيرًا ستره، وإن رأى شرًّا أظهره، وما من شخص إلا ويمكن تحسين حاله بخصال فيه، ويمكن تقبيحه أيضًا، روي أن رجلاً أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ ، فلما كان من الغد ذَمَّه، فقال عليه السلام: أنت بالأمس تثني عليه واليوم تذمه؟ فقال: والله لقد صدقت عليه بالأمس وما كذبت عليه اليوم، أرضاني بالأمس فقلت أحسن ما علمت فيه، وأغضبني اليوم فقلت أقبح ما علمت فيه، فقال عليه السلام: إن من البيان لسحرًا[1].

وكأنه كره ذلك، فشبهه بالسحر، ولذلك قال في خبر آخر: البذاء والبيان شعبتان من النفاق، وفي حيث آخر: (إن الله يكره لكم البيان كل البيان)[2]، ولذلك قال الشافعي - رحمه الله -: ما أجد من المسلمين مَن يطيع الله عز وجل فلا يعصيه، ولا أحد يعصي الله عز وجل فلا يطيعه، فمن كان طاعاته أغلب من معاصيه فهو عدل، وإذا جعل مثل هذا عدلاً في حق الله، فلئن تراه عدلاً في حق نفسك، ومقتضى أخوتك أولى، وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه يجب عليك السكوت بقلبك، وذلك بترك إساءة الظن، فسوء الظن غيبة بالقلب، وهو منهي عنه أيضًا، وحَدّه أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن، فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة، فلا يمكنك أن لا تعلمه، وعليك أن تحمل ما تشاهد

(1) الحديث عند أحمد والبخاري وأبي داود والترمذي، وسببه أنه لما جاء وفد تميم كان فيهم الزبرقان وعمرو بن الأهتم، فخطبا ببلاغة وفصاحة، ثم قال الزبرقان: يا رسول الله، أنا سيد بني تميم، والمطاع فيهم، والمجاب لديهم، أمنعهم من الظلم، وآخذ بحقوقهم، وهذا يعلم ذاك، فقال عمرو: إنه شديد المعارضة، مانع لجانبه، مطاع في أذينه، فقال الزبرقان: والله لقد علم مني أكثر مما قال، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد، فقال عمرو: أنا أحسدك؟ فوالله إنه للئيم الحال، حديث المال، ضعيف الطعن، أحمق الولد، والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً، وما كذبت فيما قلت أخرًا، ولكني رجل إن أُرضيت قلت أحسن ما علمت، وإن أغضبت قلت أقبح ما وجدت، ولقد صدقت في الأولى والأخرى، فقال ﷺ: **إن من البيان لسحرًا**.

(2) هذا الحديث رواه ابن السني وهو ضعيف، والذي قبله رواه الترمذي وحسنه، والمراد بالبيان المذموم: بيان الخلابة الذي يُري الحق باطلاً والباطل حقًّا، فينخدع به الناس.

على سهو ونسيان إن أمكن وهذا الظن ينقسم إلى ما يسمى تفَرُّسًا،وهو الذي يستند إلى علامة، فإن ذلك يحرك الظن تحريكًا ضروريًّا لا يقدر على دفعه، وإلى ما منشؤه سوء اعتقادك فيه، حتى إذا صدر منه فعل له وجهان فيحملك سوء الاعتقاد فيه أن تنزله على الوجه الأردأ من غير علامة تخصه بها، وذلك جناية عليه بالباطن، وذلك حرام في حق كل مؤمن، إذ قال ﷺ :"**إن الله حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه، وأن يظن به ظن السوء**-(هو في مسلم بلفظ آخر) وقال صلى الله عليه وسلم :"**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث** ـــ، أي حديث النفس. وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس، وقال ﷺ في تتمة الحديث الذي ذُكِر آنفًا: ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك. رواه مالك وأحمد والشيخان والترمذي، والتجسس يكون في تطلع الأخبار، وتعرف الأسرار بالواسطة، والتحسس يكون بالمراقبة بالعين، واستراق السمع بالنفس لا بالواسطة، والتناجش هو أن تستام السلعة بأكثر من ثمنها ليراك الآخر فيقع فيها، فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين، وقد وُصف الله تعالى بالستر والتجاوز والمَرضيّ عنده التخلق بأخلاقه، فإذا كنت تحب أن يرضى فيتجاوز عنك فتجاوز أنت عمن هو مثلك أو فوقك، وما هو بكل حال عبدك ولا مملوكك.

وقد روي أن عيسى عليه السلام ، قال للحواريين: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائمًا، وقد كشفت الريح ثوبه عنه، قالوا: نستره ونغطيه، قال: بل تكشفون عورته، قالوا: سبحان الله! من يفعل هذا؟ فقال: أحدكم يسمع الكلمة في أخيه فيزيد عليها، ويشيعها بأعظم منها.

واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، كما ورد في الصحيحين وغيرهما، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة والسكوت على المساوي والعيوب ولو ظهر منه نقيض ما ينتظره اشتد عليه غيظه وغضبه، فما أبعده عن الإنصاف إذا كان ينتظر منه ما لا يضمره له، ولا

يعزم عليه لأجله، وويل له بنص كتاب الله تعالى حيث قال: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾} [المطففين: ١ - ٣]، وكل من يلتمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه، فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية، ومنشأ التقصير في ستر العورة أو السعي في كشفها الداء الدفين في الباطن، وهو الحقد والحسد؛ فإن الحقود الحسود يملأ بطنه بالخبث، ولكن يحبسه في باطنه ويخفيه ولا يبديه مهما لم يجد له مجالاً، وإذا وجد فرصة انحلت الرابطة وارتفع الحياء، ويترشح الباطن بخبثه الدفين، ومهما انطوى الباطن على حقد وحسد فالانقطاع أولى، قال بعض الحكماء: ظَاهِرُ العِتَاب خَيْرٌ مِنْ مَكْنُونِ الحِقْدِ، ولا يزيد لُطف الحقود إلا وحشة منه، ومَنْ في قلبه سخيمة على أخيه فإيمانه ضعيف، وأمره مخطر، وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله تعالى) اهـ.

ومن حق الأخ على أخيه وصديقه في اللسان أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه إياه، وله أن ينكره وإن كان كاذبًا، فليس الصدق واجبًا في كل مقام، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب، فله أن يفعل ذلك في حق أخيه[1] فإن أخاه نازل منزلته، وهما شخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن، هذه حقيقة الأخوة، وكذلك لا يكون بالعمل بين يديه مرائيًا وخارجًا عن أعمال السر إلى أعمال العلانية، فإن معرفة أخيه لعمله كمعرفته بنفسه من غير فرق، وقد قال عليه السلام: **"من ستر عورة أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة"**[2] وفي خبر آخر: **"فكأنما أحيا مو ؤودة"**.

رواه أبو داود والنسائي وغيرهما، وقال عليه السلام: **"إذا حدّث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة"**[3]. وقال: **"المجالس بالأمانة إلا ثلاثة**

---

(1) الكذب مفسدة من أضر المفاسد، والقاعدة الشرعية العقلية هي: (ارتكاب أخف الضررين عند تعارضهما) ومهما وجد إلى كتمان السر سبيلاً لا كذب فيه، وجب عليه سلوكه وحرم عليه الكذب.

(2) الحديث في الصحيحين بلفظ (من ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة) ورواه غيرهما بألفاظ أخرى.

(3) أي التفاته بمنزلة استكتامه قولاً، والحديث رواه أحمد وأبو داود والترمذي، واختلف في تصحيحه.

مجالس: مجلس يسفك فيه دم حرام، ومجلس يستحل فيه فرج حرام، ومجلس يستحل فيه مال من غير حله-[1] وقال ﷺ :"**المتجالسان بالأمانة ولا يحل لأحدهما أن يفشي على الآخر ما يكره** -(هو مرفوع ضعيف، مرسلاً جيد) وقيل لبعض الأدباء: كيف حفظك للسر؟ قال: أنا قبره، وقد قيل : (صدورالأحرار قبور الأسرار)، وقيل: إن قلب الأحمق في فيهِ، ولسان العاقل في قلبه، أي لا يستطيع الأحمق إخفاء ما في نفسه فيبديه من حيث لا يدري، فمن ههنا يجب مقاطعة الحمقى والتوقي عن صحبتهم، بل عن مشاهدتهم.

وقد قيل لآخر: كيف تحفظ السر؟ قال: أجحد المخبر وأحلف للمستخبر، وقال

آخر: أستره، وأستر أني أستره، وعَبَّر عنه ابن المعتز فقال:

ومستودعي سرًّا تبوأت كتمه ∴ فأودعته صدري فكان له قبرًا

وقال آخر وأراد الزيادة عليه:

وما السر في قلبي كثاوٍ بقبره ∴ فإني أرى المقبور ينتظر النشرا
ولكنني أنساه حتى كأنني ∴ بما كان منه لم أحط ساعة خُبرا
ولو جاز كتم السر بيني وبينه ∴ عن السر والأحشاء لم أعلم السرا

وأفشى بعضهم سرًّا له إلى أخيه ثم قال له: حفظت؟ فقال: بل نسيت، وكان أبو سعيد الثوري يقول: إذا أردت أن تواخي رجلاً فأغضبه، ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال خيرًا أو كتم سرك فاصحبه، وقيل لأبي يزيد: مَن أصحبُ مِن الناس؟ قال: مَن يعلم مِنك كما يعلم الله، ثم يستر عليك كما يستر الله. وقال ذو النون: لا خير في صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصومًا، ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم؛ لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها، وقال بعض الحكماء: لا

(1) رواه أبو داود وسكت عليه؛ فدل ذلك على حسنه عنده، وقال غيره: في سنده مجهول ومتكلم فيه.

تصحب مَن يتغير عليك عند أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه، بل ينبغي أن يكون صدق الأخوة ثابتًا على اختلاف هذه الأحوال، ولذلك قيل:

وترى الكريم إذا تصرم وصله : يُخفي القبيح ويُظهر الإحسانا
وترى اللئيم إذا تقضى وصله :: يُخفي الجميل ويُظهر البهتانا

وقال العباس لابنه عبد الله: إني أرى هذا الرجل (يعني عمر) يقدمك على الأشياخ، فاحفظ عني خمسًا: لا تفشين له سرًّا، ولا تغتابن عنده أحدًا، ولا يجربن عليك كذبًا، ولا تعصين له أمرًا، ولا يطلعن منك على خيانة، فقال الشعبي: كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف.

ومن ذلك السكوت عن المماراة والمدافعة في كل ما يتكلم به أخوك، قال ابن عباس: لا تُمارِ سفيهًا فيؤذيك، ولا حليمًا فيقليك، وقال صلى الله عليه وسلم :"**من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتًا في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتًا في أعلى الجنة** -(حسنه الترمذي) هذا مع أن تركه مبطلاً واجب، وقد جعل ثواب النفل أعظم؛ لأن السكوت على الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل، وإنما الأجر على قدر النصب، وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المماراة والمناقشة؛ فإنها عين التدابر والتقاطع، فإن التناطع يقع أولاً بالآراء، ثم بالأقوال، ثم بالأبدان، وقد قال ﷺ :"**لا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يحرمه، ولا يخذله، بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم**-[1]. وأشد الاحتقار المماراة، فإن من رد على غيره كلامه فقد نسبه إلى الجهل والحمق، أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه، وكل ذلك استحقار وإيغار للصدر وإيحاش، وفي حديث أبي أمامة الباهلي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتمارى، فغضب وقال:"**ذروا المراء لقلة خيره، وذروا المراء فإن نفعه قليل، وإنه يهيج**

(1) تقدم بعض هذا الحديث في نبذة الجزء الماضي بلفظ آخر، وكل رواياته في الصحاح.

العداوة بين الإخوان-[1].

وقال بعض السلف : مَن لاحى (خاصم) الإخوان وماراهم، قلَّت مروءته وذهبت كرامته. وقال عبد الله بن الحسن: إياك ومماراة الرجال، فإنك لن تعدم مكر حليم، أو مفاجأة لئيم، وقال بعض السلف: أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم، وكثرة المماراة توجب التضييع والقطيعة وتورث العداوة، وقد قال الحسن: لا تَشْتَرِ عداوة رجل بمودة ألف رجل.

وعلى الجملة: فلا باعث على المماراة إلا إظهار التمييز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه بإظهار جهله، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار، والإيذاء والشتم بالحمق والجهل [2]ولا معنى للمعاداة إلا هذا، فكيف تضامَّه الأخوة والمصافاة، فقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :"**لا تمارِ أخاك ولا تمازحه، ولا تعده موعدًا فتخلفه** -(رواه الترمذي بسند ضعيف) وقال عليه السلام:"**إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن ليسعهم منكم بَسطُ وَجهٍ وحُسْنُ خُلُقٍ**-(حسنه أبو يعلى، وصححه الحاكم، وضعفه ابن عدي) وقد انتهى السلف في الحذر من المماراة، والحض على المساعدة إلى حد لم يروا السؤال أيضًا، وقالوا: إذا قلت لأخيك: قم، فقال: إلى أين؟ فلا تصحبه، وقالوا: بل ينبغي أن يقوم ولا يسأل، وقال أبو سليمان الداراني: كان لي أخ بالعراق فكنت أجيئه في النوائب، فأقول: أعطني من مالك، فكان يلقي إليّ كيسه فآخذ منه ما أريد، فجئته ذات يوم، فقلت: أحتاج إلى شيء، فقال: كم تريد؟ فخرجت حلاوة

---

(1) رواه الطبراني والديلمي وإسناده ضعيف.

(2) وهذا هو الفرق بين المماراة وبين المذاكرة بالحسنى ومراجعة القول لإظهار الحقيقة والاعتقاد بالإنصاف، وكل هذا من الفضائل التي لا يعرف قيمتها ويقدرها قدرها إلا الفضلاء، وقد قلت في أحد أخوافي أوحدهم من قصيدة طويلة:

يرنو بعين الانتقاد إن رأى ::: صفـا وإلا فبعينيْ الرضـى
متى رأى فضلاً أذاع وروى ::: وإن رأى ميلاً جنّ وطوى
إن الذي يرضيه كل خلق ::: منك خليق أن يعد في العدا
والخل من ينتقد الخلال كي ::: يثني على الحسنى وينكر الفغا
بل هو مرآة يريك نوره ::: منكسًا عنك الذي لست ترى

إخائه من قلبي، وقال آخر: إذا طلبت من أخيك مالاً، فقال: ماذا تصنع به؟ فقد ترك حق الإخاء، واعلم أن قِوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة، قال أبو عثمان الحيري:

موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم، وهو كما قال. اهـ بتصرف

وقد قالت العرب:

أخوك من صدقك لا من صدّقك.

من اتخذ إخواناً كانوا له أعواناً.

عمرو بن العاص رضي الله عنه: من كثر إخوانه كثر غرماؤه.

المغيرة: التارك للإخوان متروك.

أسماء بن خارجه: إذا قدم الإخاء سمج الثناء.

مسلم بن قتيبة: إن في لقاء الإخوان غنماً وإن قلّ.

ابن المقفع: إكرامك صديق صديقك أوقع لديه من إكرامك إياه.

العتبي: لقاء الإخوان نزهة القلوب.

خالد بن صفوان: إنما نفقت على الإخوان، لأني لم أستعمل معهم النفاق، ولا قصرت بهم عن الارتفاق.

الكندي: الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك.

عمرو بن مسعدة: العبودية عبودية الاخاء، لا عبودية الرق.

إسماعيل بن صبيح: الود أعطف من الرحم.

سعيد بن العاص: إن الكريم ليرعى من المعرفة ما يرعى الواصل من القرابة.

شبيب بن شعيب: عليك بالإخوان فإنهم في الرخاء زينة وفي البلاء عدة.

إبراهيم بن العباس: مثل الإخوان كالنار قليلها متاع، وكثيرها بوار.

سليمان بن وهب النفس بالصديق أنس منها بالعشيق، وغزل المودة أرق من غزل الصبابة.

الحسن بن وهب: من حقوق المودة أخذ عفو الإخوان، والإغضاء عن التقصير إن كان، وذكر محمد بن عبد الملك الزيات رجلاً فقال: ويحسبك أنه خلق كما يشتهي إخوانه.

غيره: المودة قرابة مستفادة. خير الأشياء جديدها، وخير الإخوان قديمهم، ما تواصل اثنان فطال تواصلهما إلا لفضائلهما أو لفضل أحدهما.

أسرع الأشياء انقطاعاً مودة الأسرار.

المحروم من حرم صالح الإخوان.

لقاء الإخوان مسلاة للهموم.

لقاء الخليل شفاء الغليل. قلة الزيادة أمان من الملالة.

عليك ب إقلال الزيادة إنها : إذا كثرت كانت الى الهجر مسلكاً
فاني رأيت القطر يسأم دائما :: ويسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

آخر:

إن اخاك الصديق من لم يخدعك : وإن رأك طالباً سعى معك
ومن إذا ريب الزمان صدّعك :: شتّت فيك شمله ليجمعك

ابن المعتز: إنما سمي الصديق صديقاً لصدقه لك؛والعدو عدواً لعدوانه عليك، لو ظفر بك. إخوان السوء كشجرة النار يحرق بعضها بعضاً. علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب، ولا يبتدئ بالكتاب. لا يفسدنك الظن على صديقٍ قد أصلحك اليقين له. إذا كثرت ذنوب الصديق تمحق السرور به، وتسلطت التهم عليه. من لم يقدم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الأنس، أثمرت مودته ندماً. غيره: إذا قدمت الحرمة تشبهت بالقرابة. خير الإخوان من نسي ذنبك فلم يقرعك به، ومعروفه عندك فلم يمنّ به عليك.

ومن المواقف:

محاسن كرم الصحبة:

قال ابن طاهر: حدثوني عن عبد الله بن مالك قال: كنت أتولى الشرطة للمهدي وكان يبعث إليّ في ندماء الهادي ومغنّيه أني أضربهم وأحبسهم صيانة له عنهم، فبعث الهادي يسألني الرفق بهم والترفيه عنهم، فلا ألتفتُ إلى ذلك وأمضي إلى ما يأمر به المهدي، فلما ولي الهادي الخلافة أيقنت بالتلف فبعث إليّ يوماً فدخلت عليه متكفّناً متحنّطاً، فإذا هو على كرسي والنطع والسيف بين يديه، فسلّمت فقال: لا سلم الله عليك! تذكر يوم بعثت إليك في أمر الحرّاني لما أمر أمير المؤمنين، رضي الله عنه ، بضربه فلم تجبني في فلان وفي فلان، وجعل يعدّ ندماءه، ولم يلتفت إلى قولي؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في استيفاء الحجة؟ قال: نعم، قلت: نشدتك الله يا أمير المؤمنين أيسرك أن ولّيتني ما ولاني أبوك وأمرتني بأمر فبعث إليّ بعض بنيك بأمر يخالف أمرك فاتبعت أمره وعصيت أمرك؟ قال: لا، قلت: فكذلك أنا لك وكذا لأبيك وأخيك. فاستدناني فقبّلت يده وأمر بخُلع فصبّت عليّ وقال: قد وليتك ما كنت تتولاه فامض راشداً. فخرجت من عنده وصرت إلى منزلي مفكراً في أمره وأمري وقلت حدثٌ والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكتّابه فكأني بهم حين يغلب عليه الشراب وقد أزالوه عن رأيه فيّ وحملوه في أمري ما كنت أتخوّفه، قال: فإني لجالس وبين يديّ بنيّة لي والكانون بين يدي ورقاق أشطره بكامخ وأسخنه وأطعمه الصبية حتى توهّمت أن الدنيا قد اقتلعت بي وزلزلت لوقع حوافر الدواب وكثرة الضوضاء فقلت: هاه كان والله ما ظننت! فإذا الباب قد فتح وإذا الخدم قد دخلوا وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار في وسطهم، فلما رأيتهم وثبت عن مجلسي مبادراً وقبّلت يده ورجله وحافر حماره، فقال: يا أبا عبد الله إني فكرت في أمرك فقلت يسبق إلى قلبك أني إذا شربت وجاءني أعداؤك أزالوا ما حسن من رأيي فيك فأقلقك وأوحشك فصرت إلى منزلك لأؤنسك وأعلمك أن السخيمة قد زالت عن قلبي فهات اطعمني ما كنت تأكل وافعل فيه ما كنت تفعل لتعلم أني قد تحرمت بطعامك وأنست بمنزلك فيزول خوفك ووحشتك. فأدنيت إليه ذلك الرقاق

والسُّكُرّجة التي فيها الكامخ فأكل منها ثم قال: هاتوا الزلة التي زللتها لأبي عبد الله من مجلسي، فأدخل إليّ أربعمائة بغل موقرة دراهم، فقال: هذه زلّتك فاستعن بها على أمرك واحفظ هذه البغال عندك فلعلي أحتاج إليها لبعض أسفاري، وانصرف راجعاً. فأخبرني موسى بن عبد الله أن أباه أعطاه بستانه الذي كان وسط داره فبنى حوله معالف لتلك البغال وكان هو يتولى القيام عليها مدّة حياة الهادي.

أغثني أغاثك الله!:

وحدّث من حضر مجلس المأمون وقد أمر بإحضار العباس صاحب الشرطة ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فلما حضر قال: يا عباس خذ هذا إليك واستوثق منه ولا يفوتنك وبكّر به واحذر كل الحذر. قال العباس: فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر يتحرك فقلت في نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يُحَبّ أن يكون معي إلا في بيتي، ثم سألته عن قصته وحاله من أين هو، فقال: من دمشق، فقال: جزى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: لا تزيد أن تسألني، فقلت له: أتعرف فلاناً؟ فقال: ومن أين عرفت ذلك الرجل؟ فقلت: كانت لي قصة معه، فقال: ما أنا بمعرّفك خبره أو تعرّفني قصتك، فقلت: ويحك! كنت مع بعض الولاة بها فخرج علينا أهلها حتى أراد الوالي أن يُدلي في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وجميع أصحابه وهربت فيمن هرب، فإني لفي بعض الطريق إذا جماعة يعدون خلفي، فما زلت أحاضرهم حتى مررت على هذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره فقلت: أغثني أغاثك الله! فقال: لا بأس عليك ادخل الدار، فدخلت، فقالت لي امرأته: ادخل الحجلة، فدخلتها، وأتت الرجال خلفي فما شعرت إلا به وهم معه يقولون: هو والله عندك! فقال: دونكم الدار، ففتشوها حتى لم يبق إلا البيت الذي كنت فيه، فقالوا: هاهنا، فصاحت المرأة وانتهرتهم، فانصرفوا وخرج الرجل فجلس على باب داره ساعة وأنا قائم في الحجلة خائفاً، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك، فجلست، فلم ألبث أن دخل الرجل وقال: لا تخف فقد صرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى، فقلت له: جزاك الله عني خيراً! ثم ما زال يعاشرني أحسن المعاشرة

وأجملها ولا يفتر من القصف والأكل والشرب والفرح أربعة أشهر إلى أن سكنت الفتنة وهدأت، فقلت له: أتأذن لي في الخروج لأتعرف خبر غلماني ومنزلي فلعلي أن أقف لهم على أثر أو خبر، فأخذ عليّ المواثيق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا لا يعرفني ولا يعرف اسمي ولا مخاطبتي بغير الكنية، ثم قال لي: ما تعزم؟ فقلت: قد عزمت على الشخوص إلى بغداد فإن قافلة تخرج بعد ثلاثة أيام وقد تفضلت عليّ هذه المدة فأسألك أن تعطيني ما أنفقه في طريقي وما ألبسه، فقال: بصنع الله عز وجل، ثم قال لغلام له أسود: انعل الفرس الفلاني، وتقدم إلى من في منزله بإعداد السفر، فقلت في نفسي: ما أشك إلا أنه يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحي، فوقعوا يومهم ذلك في تعبٍ وكدّ، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني في السحَر وقال: يا أبا فلان قم فإن القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: ما أعطاني شيئاً مما سألته، ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان إليّ خفاتين مقطوعة جدداً وراناتٍ وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي ثم قدّم البغل فحمل عليه الصناديق وفوقها مفرشان ودفع إليّ نسخةً بما في الصناديق وفيها خمسة آلاف درهم وقدّم إلي الفرس الذي كان أنعله بسرجه ولجامه وقال لي: اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس دوابك، وأقبل هو وامرأته يعتذران من تقصيرهما في أمري، وركب معي فشيعني، وانصرفت إلى بغداد وأنا على مكافأته ومجازاته فعاقنا عن ذلك ما نحن فيه من الشغل بالأسفار واتصالها والتنقل من مكان إلى مكان. فلما سمع الرجل الحديث قال: قد أتاك الله عز وجل بمن تريد مكافأته بلا مؤونة عليك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا والله ذلك الرجل! ثم قال لي: ما أثبتك! فتعرّف إليّ وأقبل يذكرني بأشياء يتعرف بها إليّ حتى أثبته وعرفته فما تمالكت أن قمت إليه فقبّلت رأسه وقلت له: ما الذي أصارك إلى هذا؟ فقال: هاجت فتنة بدمشق مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إليّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وحُملت إليه وأمري عنده غليظ جداً وهو قاتلي لا محالة، وقد خرجت من عند أهلي بلا وصية وقد تبعني من عبيدي من ينصرف إلى منزلي بخبري وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تنعم

وتبعث إليه حتى يحضر فأتقدّم إليه بما أريد، فإذا أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة لي. قال فقال العباس: بصنع الله، ثم قال: علي بحدّادين، فأتوا بهم، فحلّ قيوده وما كان عليه من أنواع الأنكال، ودعا بالحجام فأحضر وأخذ من شعره ثم قال: عليّ بمولاه، فأنفذ في طلبه من يحضره. قال الرجل: فلما أن أخذ شعري أدخلني الحمام فطرح عليّ من ثيابه ما اكتفيت به ثم حضر مولاي وقعد يبكي، فقال العباس: عليّ بفرسي الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني، حتى عد عشراً، ثم قال: عليّ من الصناديق والكسوة بكذا ومن صناديق الطعام بكذا، ثم أمر لي ببدرةٍ فيها عشرة آلاف درهم وكيس فيه خمسة آلاف دينار وقال لصاحب شرطته: خذه واعبر به إلى جسر الأنبار، فقلت له: إن أمري غليظ وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأُردّ وأُقتل، فقال: انج بنفسك ودعني أدبر أمري، فقلت: والله لا أبرح من بغداد أو أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على هذا فليكن في موضع كذا وكذا فإن سلمت في غداة غدٍ فسبيل المحبة وإن قتلت كنت قد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله أن تذهب من ماله شيئاً قيمته درهم وتخلّصه حتى تخرجه من بغداد.دخلني الحمام فطرح عليّ من ثيابه ما اكتفيت به ثم حضر مولاي وقعد يبكي، فقال العباس: عليّ بفرسي الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني، حتى عد عشراً، ثم قال: عليّ من الصناديق والكسوة بكذا ومن صناديق الطعام بكذا، ثم أمر لي ببدرةٍ فيها عشرة آلاف درهم وكيس فيه خمسة آلاف دينار وقال لصاحب شرطته: خذه واعبر به إلى جسر الأنبار، فقلت له: إن أمري غليظ وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأُردّ وأُقتل، فقال: انج بنفسك ودعني أدبر أمري، فقلت: والله لا أبرح من بغداد أو أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على هذا فليكن في موضع كذا وكذا فإن سلمت في غداة غدٍ فسبيل المحبة وإن قتلت كنت قد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله أن تذهب من ماله شيئاً قيمته درهم وتخلّصه حتى تخرجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة فصيرني في مكان يثق به وتفرّغ العباس لنفسه واغتسل وتحنّط وتكفن. قال العباس: فلم أفرغ من ذلك حتى وافتني رسل المأمون في السحر وقالوا: أمير المؤمنين يقول هات الرجل، فسكتّ وأتيت الدار وإذا أمير المؤمنين جالس عليه ثيابه أمام فراشه، فقال: الرجل! فسكتّ، فقال: ويحك الرجل! فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني، فقال: أعطي الله عهداً لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك! فقلت: لا والله ما هرب، فاسمع مني حديثي وحديثه ثم أنت أعلم بما تفعله في أمرنا، قال: قل، فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كذا وكذا، وقصصت عليه القصة وعرّفته أني كنت أريد مكافأته فشغلت عن ذلك حتى إذا كان البارحة عرفته وعبرت به جسر الأنبار وقلت: أنا من سيدي أمير المؤمنين بين أمرين، إما تصفح عني وإما قتلني وأكون قد كافيته ووقيته بنفسي كما وقاني بنفسه. فلما سمع المأمون الحديث قال: ويحك! لا جزاك الله خيراً عن نفسك وعنا وعن هذا الفتى الحرّ، إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافيه بعد المعرفة بهذا! لم لا عرّفتني خبره فكنت أكافيه عنك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إنه والله هاهنا قد حلف أنه لا يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتيج إلى حضوره حضر، قال: وهذه والله منه أعظم من الأولى، فاذهب إليه الآن وطيّب نفسه وسكن روعه وتعبر به إليّ حتى أتولى مكافأته عنك. فصرت إليه وقلت: ليسكن روعك إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت، فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء غيره، ثم تهيأ للصلاة فصلى ركعتين ثم جئنا فلما مثل بين يدي المأمون أدناه حتى أجلسه إلى جانبه وآنسه وحدّثه حتى حضر الغداء، ثم قال: الطعام، فأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفاه، ثم قال المأمون: علي بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة بغال بجميع آلتها وبعشر بدر وبعشر تخوت وعشرة مماليك بذواتهم وجميع آلتهم، فدُفع ذلك إليه، وكتب إلى عامله بالوصاية عليه وأوغر خراجه وكتب إلى صاحب البريد أن تنفذ كتبه وصرفه إلى بلده. قال العباس: فكان إذا ورد له كتاب في خريطة يقول لي المأمون: يا عباس هذا كتاب صديقك.

فكيف لا أصبر على أذى الشمس ساعة؟:

وحدّث رجل عن جعفر العطار قال: بينما يحيى بن أكثم يماشي المأمون في بستان موسى والشمس عن يمينه والمأمون في الظل وقد وضع يده على عاتق يحيى وهما يتحدثان إذ رأى المأمون أن يرجع في الطريق الذي جاء منه، فلما انتهى إلى الموضع الذي قصده قال يحيى: إنك جئت وعن يسارك الشمس وقد أخذت منك فكن أنت الآن في منصرفك حيث كنت وأكون أنا حيث كنت أنت، فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين لو أمكنني أن أقيك بنفسي من هول المطلع لفعلت فكيف لا أصبر على أذى الشمس ساعة؟ فقال: والله لا بدّ من أن آخذ منها كما أخذت منك وتأخذ من الظل كما أخذت منه! فصار المأمون في موضعه وصار يحيى في موضع المأمون وتماشيا وأخذ بيده فوضعها على عاتقه حتى صار إلى المجلس.

وما أعلم لها سبباً إلا تلك الكلمة:

وحدّث رجل من آل اسوار بن ميمون عن عمه عبد الله بن أسوار قال: دخلت على يحيى بن خالد البرمكي يوماً فقال: اجلس، وكنت أحد كتّابه فقلت: ليست معي دواة، فقال: ويحك! في الأرض صاحب صناعة تفارقه آلته؟ وأغلظ لي في حرف علمت أنه أراد به خطّي وأراني بعض التثاقل في الكتاب ظهر لي به أنه أراد خطي على الأدب لا غير، ثم دعا بدواة فكتبت بين يديه كتاباً منه إلى الفضل ابنه، ورأى مني بعض الضجر في ما كتبت فتوهّم أن ذلك من أجل الكلمة التي كلمني بها، فأراد أن يمحو عن قلبي ما توهّمه عليّ فقال: عليك دين؟ قلت: نعم، قال: من دينك؟ قلت: ثلاثمائة ألف درهم، فوقع بخطه إلى الفضل في الكتاب:

وكلُّكم قد نال شبعاً لبطنه :: وشبع الفتى لؤمٌ إذا جاع صاحبه

ثم قال: إن عبد الله ذكر أن عليه ديناً يخرجه منه ثلاثمائة ألف درهم فإذا نظرت في كتابي هذا وقبل أن تضعه من يدك فأقسمت عليك لمّا حملت ذلك إلى منزله من أخصّ مال قِبلك. قال: فحملها الفضل إليّ وما أعلم لها سبباً إلا تلك الكلمة.

فما حالي من بين ولدك؟:

وحدّث إبراهيم بن ميمون قال: حدثني جبريل بن بختيشوع قال: اشتريت ضيعة فنقدت بعض الثمن وتعذر عليّ بعضه فدخلت على يحيى وعنده ولده وأنا أفكّر فقال لي: ما لي أراك مفكراً؟ فقلت: أنا في خدمتك وقد اشتريت ضيعة بسبعمئة ألف درهم ونقدت بعض الثمن وتعذر عليّ بعضه.

فدعا بالدواة وكتب: يعطى جبريل سبع مائة ألف درهم. ثم دفع الكتاب إلى ولده فوقّع فيه كل واحد منهم بثلاثمائة ألف درهم، فقلت: جعلت فداك! قد أدّيت عامة الثمن وإنما بقي عليّ أقلّه، فقال: اصرف ذلك في بعض ما ينوبك. ثم صرت إلى الرشيد فقال: ما أبطأ بك؟ قلت: يا أمير المؤمنين كنت عند أبيك وإخوتك ففعلوا بي كذا وكذا، قال: فما حالي أنا؟ ثم دعا بدابته فركب إلى يحيى فقال له: يا أبت خبّرني جبريل بما كان فما حالي من بين ولدك؟ فقال: يا أمير المؤمنين مُر له بما شئت يحمل إليه، فأمر بحمل مال إلى جبريل.

وكان إبراهيم بن جبريل على شرطة الفضل فوجّهه إلى كابل فافتتحها وغنم غنائم كثيرة ثم ولاه سجستان، فلما انصرف منها كان عنده من مال الخراج أربعة آلاف ألف درهم، فلما قدم بغداد وبنى داره في البغويين استزار الفضل بن يحيى ليريه نعمته عليه وأعد الهدايا والطُّرف وآنية الذهب والفضة والوصفاء والوصائف والدواب والقباب والثياب وما تهيأ لمثله ووضع الأربعة الآلاف الألف الدرهم في ناحية من الدار، فلما تغدّى الفضل قدّم إليه تلك الهدايا، فأبى أن يقبل منها شيئاً وقال: لم آتك لأسلبك! فقال: أيها الأمير إنها نعمتك علي! قال: ولك عندنا مزيد. قال: فلم يزل يطلب إليه فأخذ من جميع ذلك سوطاً سِجزياً، فقال: هذا من آلة الفرسان، فقال إبراهيم: أيها الأمير فهذا المال من مال الخراج تأمر بقبضه؟ قال: هو لك، فأعاد عليه القول مراراً، فقال: ما لك بيتٌ يسعه، فوهب له المال بعد أن كان قد صار إليه ألف ألف درهم.

ما أحسن ما فعلت!:

قال: ودخل قوم من حاشية المنصور وخدمه عليه فرأى منهم رجلاً عليه سوادٌ خلقٌ فقال له: يا فلان ما لي أرى سوادك منقطعاً، أما تقبض

رزقك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين ولكن أبي توفي وترك ديناً فبعت تركته في قضاء دينه وصرفت أكثر رزقي إلى حرمته وولده من بعده، فقال: أعد عليّ ما قلت، فأعاده، فقال: ما أحسن ما فعلت! اغد عليّ في غدٍ، فغدا عليه فوجد الربيع جالساً على الكرسي، فقال: قد سأل عنك أمير المؤمنين فادخل، فدخل فوجده قائماً يصلي، فقضى صلاته وقال: ألم آمرك أن تغدو؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما قصرت في الغدوّ عند نفسي، قال: خذ ما تحت تلك المُضَرّبة، وإذا السراج يزهر وسرير صغير في ناحية المجلس ينام عليه، فرفعت المضربة فإذا دنانير، فجعلت أحثوها في كمي ثم دعوت له هو وخرجت، فبصر بصفرة دينار في ضوء السراج، فدعا لي فقال لي: انظر ما على السرير، فإذا دينار فأخذته، فقال: ادن مني، فدنوت منه فعرك أذني تعريكاً شديداً فقال: تترك ديناراً وفيه نفقة يومك؟ قال: فأخذت الدينار، ووزنت الدنانير وإذا هي ألف دينار عددها تسعمائة وتسعة وتسعون ديناراً في عافية وأخذت واحداً بعرك الأذن.

قيل: وقال علقمة بن لبيد لابنه: يا بني إن نازعتك نفسك يوماً إلى صحبة الرجال لحاجتك إليهم فاصحب من إن صحبته زانك، وإن تخففت له صانك، وإذا نزلت بك نازلة مانك، وإن قلت صدّق قولك، وإن صلت به شدد صولك. اصحب من إذا مددت يدك لفضلٍ مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن بدت منك ثلمة سدها. اصحب من لا تأتيك منه البوائق ولا تختلف عليك منه الطرائق ولا يخذلك عند الحقائق.

وقال بعض الحكماء: إذا رأيت كلباً ترك صاحبه وتبعك فارجمه بالحجارة فإنه تاركك كما ترك صاحبه.

وقال آخر: اصحب من خوّلك نفسه وملّكك خدمته وتخيّرك لزمانه فقد وجب عليك حقه وذمامه، وكان يقال من قبل: صلتك، فقد باعك مروءته وأذلّ لقدرك عزّه.

وقال بعضهم: أنا أطوع لك من اليد وأذل من النعل.

وقال بعضهم: أنا أطوع لك من الرداء وأذل من الحذاء.

قيل: وقال ابن أبي دؤاد لرجل انقطع إلى محمد بن عبد الملك الزيات: ما خبرك مع صاحبك؟ قال: لا يقصر في الإحسان إليّ، قال: يا هذا إن لسان حالك يكذّب لسان مقالك.

تشهوا ما أحببتم:

وقال أبو سعد كان الشافعي من أجود الناس وأسخاهم كفا كان يشتري الجارية الصناع التي تطبخ وتعمل الحلواء ويقول لنا تشهوا ما أحببتم فقد اشتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون فيقول بعض أصحابنا اعملي اليوم كذا وكذا وكنا نحن نأمرها.

وقال الربيع كان الشافعي إذا سأله إنسان شيئا يحمر وجهه حياء من السائل ويبادر بإعطائه رحمه الله ورضي عنه.

إنك ضيق الخلق:

عن مجاهد بن جبر قال كنت أصحب ابن عمر رضي الله عنه في السفر فإن أردت أن أركب يأتيني فيمسك ركابي وإذا ركبت سوى ثيابي قال مجاهد فجاءني مرة فكأني كرهت ذلك فقال : يا مجاهد إنك ضيق الخلق [1].

فباع حماره واشترى شهوتي:

عن سهل بن إبراهيم قال: صحبت إبراهيم بن أدهم في سفر، فأنفق عليّ نفقته، ثم مرضت، فاشتهيت شهوة، فباع حماره واشترى شهوتي، فقلت: فعلى أيّ شيءٍ نركب قال على عنقي، قال: فحمله ثلاثة منازل[2].

قد أبررت يمينك:

قال أحمد بن أبي الحواريّ: سمعت أبا الوليد يقول: ربّما جلس إبراهيم ابن أدهم من أول الليل إلى آخره يكسّر الصنوبر فيطعمنا.

وغزوت معه ولي فرسان وهو على رجليه، فأردته أن يركب فأبى، فحلفت، فركب حتى جلس على السَّرج، فقال: قد أبررت يمينك، ثم نزل[3].

---

(1) حلية الأولياء، 3 / 284.

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 55/10.

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 56/10.

أعز الأشياء في آخر الزمان:

قال إبراهيم بن أدهم: أعز الاشياء في آخر الزمان ثلاثة،: أخ في الله يؤنس به، وكسب درهم من حلال، وكلمة حق عند سلطان [1].

فلم تنفتل إليه!:

قال سفيان بن عيينة: زار قيس بن مسلم محمد بن جحادة ذات ليلة، فأتاه وهو في المسجد بعد صلاة العشاء ومحمد قائم يصلي، فقام قيس بن مسلم في الناحية الأخرى يصلي، فلم يزالا على ذلك حتى طلع الفجر، وكان قيس بن مسلم إمام مسجده، فرجع إلى الحي فأمهم ولم يلتقيا ولم يعلم محمد بمكانه؛ فقال له أهل المسجد: زارك أخوك قيس بن مسلم البارحة فلم تنفتل إليه! قال: ما علمت بمكانه، فغدا عليه فلما رآه قيس بن مسلم مقبلاً قام إليه فاعتنقه ثم خلوا جميعاً فجعلا يبكيان[2].

أحمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك:

- وفي السير: أن ابن المبارك.. كان كثيراً ما يسافر إلى الرقة.. وينزل في خان فيها..

فكان شاب يأتي إليه.. ويقوم بحوائجه.. ويسمع منه الحديث..

فقدم عبد الله الرقة مرة.. فلم ير ذلك الشاب..

فسأل عنه.. فقالوا: إنه محبوس.. لدين ركبه..

فقال عبد الله: وكم مبلغ دينه؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم..

فلم يزل عبد الله يستقصي.. حتى دُلَّ على صاحب المال.. فدعا به ليلاً وأعطاه عشرة آلاف درهم.. وحلفه ألاَّ يخبر أحداً..ما دام عبد الله حياً..

---

(1) يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي " 654 - 742 "، تهذيب الكمال مع حواشيه، المحقق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، 1400 - 1980، 2 / 35.

(2) كان محمد بن جحادة من العابدين وكان يقال: إنه لا ينام من الليل إلا أيسره، فرأت امرأة من جيرانه كأن عليه " لعل هذه اللفظة زائدة " حللاً فرقت على أهل مسجدهم فلما انتهى الذي يفرقها إلى محمد بن جحادة دعى بسفط مختوم فأخرج حلة خضراء قالت: لم يقم لها بصري؛ قالت: فكساه إياها وقال: هذه لك بطول السهر، قالت تلك المرأة: فوالله لقد كنت أراه بعد ذلك فأتخايلها عليه تعني الحلة. ابن الجوزي، صفة الصفوة، 128/3.

وقال له: إذا أصبحت.. فاخرج الرجل منفلما خرج الفتى من الحبس.. قيل له: عبد الله بن المبارك كان هاهنا.. وكان يسأل عنك.. فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة.. فلما قابله.. قال له عبد الله: يا فتى.. أين كنت؟ لم أرك في الخان! قال: كنت محبوساً بدين..

قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضى ديني.. ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس..

فقال له عبد الله: أحمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك.. ثم فارقه ومضى [1]..

إلا رأيت أنه خيرٌ منك:

- وروى الخطابي أن الإمام الفذ عبد الله بن المبارك قدم خراسان فقصد رجلاً مشهوراً بالزهد والورع فلما دخل عليه لم يلتفت إليه الرجل ولم يأبه به ولم يهتم به، فخرج من عنده عبد الله بن المبارك فقال له بعض من عنده: أتدري من هذا؟ قال " لا، قالوا: هذا أمير المؤمنين في الحديث... هذا عبد الله بن المبارك فبهت الرجل وخرج إلي ابن المبارك مسرعاً يعتذر إليه ويتنصل مما حدث وقال يا أبا عبد الرحمن: أعذرني وعظني، قال إ بن المبارك: نعم إذا خرجت من منزلك فلا يقعن بصرك علي أحد إلا رأيت أنه خيرٌ منك ".

ما جاء بك؟:

كان الفضيل جالسا وحده في المسجد فجاء إليه أخ له فقال ما جاء بك؟ قال المؤانسة قال هي والله بالمواحشة أشبه هل تريد إلا أن تتزين لي وأتزين لك وتكذب لي وأكذب لك إما أن تقوم عني وإما أن أقوم عنك [2].

والله لشقاء أصحاب أصحاب رسول الله ﷺ بك أشد من شقائك بنا!:

وورد في بعض المجاميع أن سفيان خرج يوماً إلى من جاءه يسمع منه وهو ضجر، فقال: أليس من الشقاء أن أكون جالست ضمرة بن سعيد وجالس هو أبا سعيد الخدري، وجالست عمرو بن دينار وجالس هو ابن

(1) ابن الجوزي، صفة الصفوة، 142/4.
(2) ابن هبة الله، شرح نهج البلاغة،، 2795/1.

عمر رضي الله عنه، وجالست الزهري وجالس هو أنس بن مالك، حتى عد جماعة، ثم أنا أجالسكم فقال له حدث في المجلس: أتنصف يا أبا محمد قال: إن شاء الله تعالى، فقال: والله لشقاء أصحاب أصحاب رسول الله ﷺ بك أشد من شقائك بنا؛ فأطرق وأنشد قول أبي نواس:

خل جنبيك لرام ... وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير ... لك من داء الكلام
إنما السالم من أل ... جم فاه بلجام

فتفرق الناس وهم يتحدثون برجاحة الحدث، وكان ذلك الحدث يحيى بن أكثم التميمي، فقال سفيان: هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء، يعني السلطان[1].

أي مصيبة أعظم من أن يؤمل فيك رجل خيراً فلا يصيبه:

وقال رجل: كنت أمشي مع سفيان بن عيينة إذ أتاه سائل فلم يكن معه ما يعطيه، فبكى، فقلت: يا أبا محمد ما الذي أبكاك قال: أي مصيبة أعظم من أن يؤمل فيك رجل خيراً فلا يصيبه.

وكان أبو عمران جد سفيان المذكور من عمال خالد بن عبد الله القسري، فلما عزل خالد عن العراق وولي يوسف بن عمر الثقفي طلب عمال خالد فهرب أبو عمران المذكور منه إلى مكة فنزلها، وهو من أهل الكوفة.

وقال سفيان: دخلت الكوفة ولم يتم لي عشرون سنة، فقال أبو حنيفة لأصحابه ولأهل الكوفة: جاءكم حافظ علم عمرو بن دينار، قال: فجاء الناس يسألونني عن عمر بن دينار، فأول من صيرني محدثاً أبو حنيفة، فذاكرته فقال لي: يا بني، ما سمعت من عمرو إلا ثلاثة أحاديث، يضطر في حفظ تلك الأحاديث[2].

(1) ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 392/2.
(2) ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 393/2.

إن كان ذاك مما ينفعكم فافعلوا:

قال عبد الله بن داود: كتب رجل كتاباً على لسان أبي حنيفة إلى والي جرجان فوصله بأربعة آلاف درهم، فقيل لأبي حنيفة فقال: إن كان ذاك مما ينفعكم فافعلوا. كان أبو حنيفة يقول: ما صليت صلاة إلا وأنا أستغفر الله من تركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان أبو حنيفة يقول: ابن أبي ليلى استحل مني ما لا أستحل من سنور.

ثم حدثهم بعد ذلك بكل ما أرادوا إلى أن رحلوا:

خرج أصحاب الحديث إلى سفيان بن عيينة فازدحموا فقال لقد هممت ألا أحدثكم شهراً فقام إليه شاب من أهل العراق فقال له يا أبا محمد ألن جانبك وحسن قولك وتأس بصالحي سلفك وأجمل مجالسة جلسائك فقد أصبحت بقية الناس وأميناً لله ورسوله على العلم والله إن الرجل ليريد الحج فتتعاظمه مشقته حتى يكاد أن يقيم فيكون لقاؤه إياك وطعمه فيك أكثر ما يحركه عليه قال فخضع سفيان وتواضع ورق وبكى ثم تمثل بقول حارثة

خَلَتِ الديارُ فسُدت غير مُسوّد ∴ ومن الشقاء تَفَرُّدِي بالسُّودَدِ

ثم حدثهم بعد ذلك بكل ما أرادوا إلى أن رحلوا [1].

المعرفة تنفع عند الكلب العقور:

قال سفيان بن عيينة: عرض المغيرة بن شعبة بالكوفة فوجدهم أربعة آلاف، فمر به شاب من الجند فقال: يا غلام زد هذا في عطائه كذا وكذا، قال: فقام شاب كان إلى جانبه فقال: أصلحك الله هذا ابن عمي لحا ليس له علي فضيلة في نسبٍ ولا نجدةٍ فألحقني به، قال: لا، قال فمر من يحط من عطائي ليظن من حضر أن بك علي موجدة، قال: لا، إن أبا هذا كانت بيني وبينه مودة وكان صديقاً لي وإن المعرفة تنفع عند الجمل الصؤول والكلب العقور فكيف بالرجل ذي المروءة والحسب؟ [2].

(1) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 418/8.
(2) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 339/1.

يا غلام أظن السلطان سيحتاج إليك:

بكى سفيان بن عيينة يوماً، فقال له يحيى بن أكثم: ما يبكيك يا أبا محمد؟ قال: بعد مجالستي أصحاب أصحاب رسول الله ﷺ بليت بمجالستكم. فقال له يحيى، وكان حدثاً، فمصيبة أصحاب أصحاب رسول الله ﷺ بمجالستك بعد أصحاب رسول الله ﷺ أعظم من مصيبتك. فقال: يا غلام أظن السلطان سيحتاج إليك [1].

أنا لكم مثل جبل أبي قبيس:

كان يجتمع في مجلس سفيان بن عيينة مائة ألف نفس، وكان يقول: أنا لكم مثل جبل أبي قبيس، أصعدوا علي وأطلعوا على التابعين[2].

أما والله لو كنت غنياً لجالسني:

ذكر أبو حازم عند الزهري فقال: أما والله إنه لجاري، وما جالسته قط، قال أبو حازم: ذاك لأني مسكين، أما والله لو كنت غنياً لجالسني، قال الزهري: قد سببتني، قال: أجل [3].

أنت منهم ومعهم والمرء مع من أحب:

عن مالك بن دينار أنه رأى رجلين يكتبان في اليقظة فسألهما فقال نكتب أسماء المحبين فقال بالله هل أنا منهم فقالا لا فوقع مغشياً عليه ثم رأى في منامه قائلا يقول أنت منهم ومعهم المرء مع من أحب[4].

أعجبني صدقك:

جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم، وهو يريد بيت المقدس، فقال له: إني أريد أن أرافقك، فقال له إبراهيم: علي أن أكون أملك لشيئك منك. قال لا، فقال إبراهيم: أعجبني صدقك[5].

(1) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، 119/1.
(2) الزمخشري، ربيع الأبرار، 128/1.
(3) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 19/3.
(4) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، 69/1.
(5) بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، 162/2.

إذا كتبتهم فاكتب تحتهم إبراهيم محب المحبين:

قال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه رأيت في الماء كان ملكا نزل من السماء فسألته عن حاله فقال نزلت أكتب المحبين مثل ثابت البناني ومالك بن دينار وذكر جماعة فقلت هل أنا منهم قال لا فقلت إذا كتبتهم فاكتب تحتهم إبراهيم محب المحبين فقال الملك قد أمرني ربي في هذه الساعة أن أكتبك في أولهم [1].

لا تقل ذلك:

وقال الأوزاعي، عن عبدة بن أبي لبابة قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا وتبسم كل واحد منهما لصاحبه تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر فقلت: إن هذا ليسير، فقال: لا تقل ذلك فإن الله يقول: {لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ} [الأنفال: ٦٣]، فعلمت أنه أفقه مني [2].

أنت مستقتل لا يحل لأحد أن يصحبك:

وكان سفيان بمكة فمرض ومعه الأوزاعي، فدخل عليه عبد الصمد بن علي فحول وجهه إلى الحائط، فقال الأوزاعي لعبد الصمد: إن أبا عبد الله سهر البارحة فلعله أن يكون نائماً، فقال سفيان: لست بنائم، لست بنائم، فقام عبد الصمد، فقال الأوزاعي لسفيان: أنت مستقتل لا يحل لأحد أن يصحبك.

هذا الحديث يكفيني:

حكي أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه سمع شخصا من وراء النهر يروي أحاديث مثلثة فسار إليه ودخل عليه فوجده يطعم كلبا وهو مشتغل به قال الإمام أحمد: فأخذت في نفسي وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إلي ثم قال حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: "**من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامه فلم يلج الجنة وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب وقد**

(1) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، 69/1.
(2) أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، 45/1.

قصدني هذا الكلب فخشيت أن أقطع رجاءه-قال فقال الإمام أحمد رحمه الله هذا الحديث يكفيني ثم رجع قافلا إلى أهله.

أهون من اعتذار إلى صديق يشوبه الكذب:

وعن خيثمة بن سليمان بن حيدرة قال: جاء رجل إلى الشافعي فقال له: - أصلحك الله - صديقك فلان عليل، فقال الشافعي: والله لقد أحسنت إلي وأيقظني لمكرمة، ودفعت عني اعتذار يشوبه الكذب ثم قال: يا غلام، هات السبتية ثم قال: للمشي على الحفاء، على علة الوجاء في حر الرمضاء من ذي طوى أهون من اعتذار إلى صديق يشوبه الكذب. ثم أنشأ يقول:

أرى راحة للحق عند قضائه ... ويثقل يوماً إن تركت على عمد
وحسبك حظاً أن ترى غير كاذب ... وقولك لم أعلم وذاك من الجهد
ومن يقض حق الجار بعد ابن عمه ... وصاحبه الأدنى على القرب والعبد
يعش سيداً يستعذب الناس ذكره ... وإن نابه حق أتوه على قصد

حتى أنتفع به كما انتفعت:

قال أبو عبد الله بن الجرّاح: قصدني أحمد بن حنبل فسألني أن أخرج إليه شيئاً من العلم، فأخرجت إليه كتاب العقل لداود بن المحبّر، فانتخب منه أحاديث وردّ الكتاب، فسألته عن ذلك فقال: لم أر فيه أحاديث صحاحاً، قال ابن الجرّاح: كلّه صحيح، قال أحمد: ومن أين عرفت؟ قال لأني استعملته فوجدته كلّه صحيحاً، فقال ردّ الكتاب إليّ حتى أنتفع به كما انتفعت [1].

* * *

(1) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 58/6.